



أشخاص

رجاء بن سلامة التونسية الحرة بعشقها وحبرها



عادت إلى بلادها
بعد سقوط نظام
بن علي، فأهدر
الإسلاميون
دمها ووصفوها
بـ«الدكتورة
الزنيقة»

انخرطت في
«الجمعية
التونسية للنساء
الديموقراطيات»
وواصلت عملها
في نقد الفكر
الديني والمجتمع
الذكوري

وتعليقاً ونقاشاً، إلى درجة تشكك أنها تقاسم مارك زوكربيرغ، ملكية موقع التواصل الاجتماعي الشهير. «نستعمل الفيسبوك كوسيلة اتصال، ولا نتركه يستعملنا كوسيلة إعلام مشوهة ولا مسؤولة»، هكذا تتعامل بن سلامة مع المارد الأزرق. ومن يدخل صفحتها، سيرف أن هذه المرأة جُبلت على المواجهات. تكتب عن الجهل المقدس، وعن رجال الدين المقنعين، وعن الخطر السلفي. تدعو إلى مأسسة الثورة التونسية، ومقاومة المسامير الصدئة، وتحرض على مقاومة الخوف والتردد لدى الخائفين أو من يعيشون «فانتازم» السيناريو الجزائري.

في فلك الحب «الصيغة الوحيدة الممكنة للتوليف بين الدوافع الجنسية العمياء والقيم الإنسانية»، تدور رجاء بن سلامة. كما تعري كل من يقترب منها إلى الدوران في فلك الحب نفسه. تفعل ذلك ببساطة، إن تكلمت أو كتبت، إن رددت جملة موسيقية أو رقصت في جلسة خاصة، حتى في غضبها تتأجج حياً. كأنها تذكرنا دوماً بأنها مؤلفة «العشق والكتابة»، ذاك الكتاب الذي هتكت فيه أحجبة الحب الأخلاقية،

وحفرت عميقاً في أصدائيد الخطاب العشقي، المسور بالعذرية والصوفية والأبنية الأسطورية واللاهوتية.

5 تواريخ

- 1962 الولادة في القيروان (تونس)
- 1997 أصدرت كتابها النقدي الأول «الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم» (دار الجنوب)
- 2001 نالت دكتوراه دولة في اللغة والأدب العربي عن أطروحة بعنوان «العشق والكتابة: قراءة في الموروث»
- 2007 شاركت في تأسيس «رابطة العقلايين العرب» في باريس
- 2012 تشارك من خلال «المعهد العربي لحقوق الإنسان» في تنظيم «منتدى الانتقال الديمقراطي والمواطنة» تحت شعار من «أجل العيش معاً»

«تجنيد» طالبات، لكتابة شهادات ضد استاذتهن، واتهامها بالتهجم على الإسلام والقرآن. كل ذلك لم يثن رجاء بن سلامة عن السير في خطوات متقدمة في نقدها للفكر الديني والمجتمع الذكوري، من خلال مؤلفاتها التي تعد إضافة نوعية إلى المكتبة العربية الحديثة، وخصوصاً «صمت البنين» (المجلس الأعلى للثقافة في مصر/ 1999) و«نقد الثوابت» و«بنين الفحولة» (دار بترا/ 2005). فما كتبه «لم يكن من السهل نشره». لكن تمزدها في الكتابة لم يكن إلا جسراً لعبورها نحو الممارسة الميدانية، فكانت من أوائل المنخرطات في «الجمعية التونسية للنساء الديمقراطيات»، تلك التي قصت مضجع النظام التونسي السابق. كما كانت عام 2007 من بين المؤسسات لـ«رابطة العقلايين العرب» دعماً للمشروع التنويري العربي. كما أشرفت على مجلة «الأوان» الإلكترونية منبر الرابطة وفضاءها الحر.

يندر أن تقع بين يديك عريضة، من دون أن تعثر فيها على توقيع «رجاء بن سلامة، كاتبة وباحثة» (هكذا توقع). كما أنّ هتافاتنا في المسيرات المدافعة عن الحريات تنقر مسامعك من بعيد، فتغريك بأن تتوقف عند هذه السيدة التي تترك أريكتها الدافئة في منزلها الواقع في حي النصر الراقي، وتنزل إلى الشارع جنباً إلى جنب مع البسطاء والفقراء، لتواجه هراوات البوليس، وغازاته المسيلة للدموع.

على صفحتها الفيسبوكية، تسبب مواقفها سيلاً من التعليقات كل يوم. هي كائن افتراضي بامتياز، يصعب مجاراة نسق إبحاره على الشبكة. هي موجودة في كل الأوقات، كتابة

حازت العام الماضي ماجستير في التحليل النفسي من باريس، وهي المدينة التي تزورها كل شهر تقريباً. قد يكون خلق ميلها إلى علم النفس تأثرها بشقيقها فتحي بن سلامة المحلل النفسي المعروف، صاحب «الإسلام والتحليل النفسي» الكتاب الذي عزبته رجاء وصدر عام 2008 عن «دار الساقى». منذ أن أكيد أن من بين دوافع هذا الميل، ما تفسره في كتاباتها: «لم يبرح طيف شهرزاد ذاكرتي ومخيلتي، منذ أن كنت أصغى إلى الخرافات. انهيمكت في الملمة خرافتي، وبناء ذاتي». أوليس علم النفس التحليلي أداة معرفية ناجعة لتفكيك النفس المنغلقة على ذاتها والمتوقعة في دوامة التقديس؟

تدرك رجاء بن سلامة ماذا تختار من إرثها الحضاري والثقافي. تختار أن تتدرب على التمرّد، لتشق أفقها التحرري بعدما قاتلت الموت في منجزها النقدي «الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري ومسلم». أصدرت الكتاب عام 1997، عن «دار الجنوب»، بعد وفاة والدها، وعزّت فيه الموت والطقوس الجنائزية، بما تملكه من معاول أنثروبولوجية ومعرفية، بعيداً عن ثقافة الخوف والترهيب وعذاب القبر.

أمام طلاب «كلية الآداب والعلوم الإنسانية» في منوبة، تفتح رجاء بن سلامة نضها. تعلمهم كيف يشيدون سماءً أوسع من اللغة، وكيف يتجراون على إشعال الحرائق في بيارد المسلمات والبيدهيات والحقائق الجامدة. غير أن هذا النص المفتوح، وهذا المنهج المتحرر، دفعا ببعض الأصوليين والمتشددین إلى

الحرية التي لا تخلو منها شوارع تونس هذه الأيام. تتمسك الباحثة والأكاديمية التونسية بفكر الاختلاف، والنقد والتحرر. ربما لأنها ولدت في مطلع الستينيات، أي في العقد الذي هب فيه الطلاب الباريسيون لذك أركان البيدهيات الثقافية والسياسية والجنسية، وقضوا على الهوية الأبوية في العائلة، وهيبة رأس المال في المصانع، وهيبة الأساتذة في المدارس. بن سلامة هي ابنة تلك الحقبة التي شهدت صعود حركات تحرير المرأة في أوروبا، وانهيار الأنظمة الشمولية، وانفجار أفكار دوفوفوار، وبورديو، ودريدا، وفوكو، وبارت.

«أنا ابنة فكر الاختلاف، وامرأة حرة في عشقي وحبري». بهذه الجملة تقتنع صاحبة «نقد الثوابت» (دار الطليعة/ 2005) بأن تاريخ الميلاد ليس مهماً، بل السياق الذي نولد فيه. ولدت رجاء في مدينة القيروان في الوسط التونسي، وهي مدينة عقبة بن نافع، وابن رشيق القيرواني، والإمام سحنون، وعلي الحضري، وابن الجزائر. هي ابنة عائلة بن سلامة التي تقول كتب التاريخ إن جزءاً منها سافر إلى تونس مع عقبة بن نافع خلال الفتوحات الإسلامية، في حين حل جزء ثان منها في الجزائر والمغرب مع طارق بن زياد. مدّت سليله بن سلامة فتوحاتها إلى ميدان العلم والأدب، وصارت في هذا المضمار، لا تعترف بأي حدود. هكذا، حازت عام 2001 دكتوراه دولة في اللغة والأدب والحضارة العربية، عن أطروحة حملت عنوان «العشق والكتابة: قراءة في الموروث». كما

ناجي الخشاوني

قبل عامين، غادرت رجاء بن سلامة الجامعة التونسية رفضاً لسياسة الوصاية والتدجين

التي فرضها النظام السابق. لكنها لم تعتزل التحريض على الثورة. وبعد انتصار الثورة في كانون الثاني (يناير) 2011، عادت من القاهرة إلى بلادها. رجعت على جناح الأمل، من أجل المساهمة في التغيير، سواء من خلال عملها الأكاديمي في «كلية الآداب والعلوم الإنسانية» في منوبة، أو نشاطها في نشر ثقافة حقوق الإنسان والمواطنة، مع رفاقها من المدافعين عن تونس العلمانية. عادت إلى بلاد الطاهر الحداد، وهي تعرف أن فتوى إهدار دمها تنتظرها في ساحة «الباساج» في قلب العاصمة، حيث توعد أوصياء الدين الجدد بشنقها. لكنها لم تخش أن تكون «شهيدة الحق الليبرالي»، كما وصفها الباحث شاكر النابلسي في مقال دافع فيه عن «الدكتورة الزنيقة».

في تلك الساحة التي تعج بالسلفيين، التقينا مرتين. كانت «سافرة» بحسب معجم الترويك الحاكمة في تونس اليوم. لا تزال كما عرفناها منذ منتصف التسعينيات، أستاذة لمادة الأدب القديم في كلية منوبة. في الساحة، لم تقف خائفة، بل معتدة بذاتها، متأنقة، ودائمة الابتسام. حدثتنا عن الثورة، وما يتهدها من أسوار دوغمانية. توعدنا على اللقاء مرة أخرى، في واحدة من مسيرات